رثاء الخنساء لأخيها صخر :

فَقَدْ فَقَدَتْكَ حَذْفَةُ فاستَراحَتْ فَلَيْتَ الخَيْلَ فارِسُها يَراها

وإنما يجب أن يبكي على الميت ما كان يوصف إذا وصف في حياته بإغاثته والإحسان إليه ، كما قال أوس بن حَجَر يرثي فضالة بن كلدة الأسدي :

لِيَبْكِكَ الشَّرْبُ وَالمُدامَةُ وَالـ ـفِتْيانُ طُرًّا وَطامِعٌ طَمَعا

وَذاتُ هِدْمٍ عارٍ نَواشِرُها تُصْمِتُ بِالماءِ تَوْلَبًا جَدِعا

وَالحَيُّ إِذْ حاذَروا الصَّباحَ وَقَدْ خافوا مُغيرًا وَسائِرًا تَلِعا [1]

ويؤكد قدامة على الربط بين المديح والرثاء ، حيث جعل الأخير قائمًا على الصفات النفسية أيضًا ، مثل قول كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه :

لَعَمْري لَئِنْ كانَتْ أصابَتْ مَنِيَّةٌ أخي وَالمَنايا لِلرِّجالِ شعوبُ

لَقَدْ كانَ ، أمّا حِلْمُهُ فَمُرَوَّحٌ عَلَيْنا ، أمّا جَهْلُهُ فَغَريبُ

أخي ما أخي ، لا فاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وَلا وَرِعٌ عِنْدَ اللِّقاءِ هَيوبُ

فقد أتى في الأبيات بما يجب الإتيان به في المراثي ، ففي البيت الأول ذكر ما يدل على أن الشِّعر مَرْثِيَّة لهالك ، وأما سائر الأبيات الأخَر فقد جمعت الفضائل الأربع التي هي : العقل ، والشجاعة ، والحلم ، والعِفَّة [2].

ويقدم ابن رشيق فارقًا بين المديح والرثاء يتمثَّل في البناء الكلي للقصيدة؛

(١) قدامة : نقد الشعر، ص ١٠٠ – ١٠٢ . (٢) المرجع السابق، ص ١٠٣ .